تعظيم القول في التفسير وأثره في دفع القراءات المنحرفة المعاصرة للقرآن الكريم

إعداد
د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي
الأستاذ المشارك بقسم القرآن الكريم وعلومه في جامعة القصيم

د. إبراهيم بن صالح بن عبدالله الحميضي

- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من جامعة الإمام بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته : (اختيارات ابن تيمية في التفسيرمن أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم " جمعا ودراسة "
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من جامعة الإمام بن سعود الإسلامية بالرياض ، بأطروحته (منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك).
- أستاذ مشارك في قسم القرآن وعلومه في كلية الشريعة وأصول الدين في جامعة القصيم.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. أما بعد:

فإن علم التفسير أشرف العلوم وأفضلها على الإطلاق؛ لتعلقه بكتاب ﷻ الذي هو أشرف الكتب، وخير الكلام، وأصدق الحديث.

ولما كان هذا العلم الشريف بهذه المنزلة، كان الخوض فيه، والجرأة عليه بغير علم من أعظم الخطايا، وأخطر القضايا.

هذا وإن المتأمل في التفسيرات الشاذة والمنحرفة للقرآن الكريم في القديم والحديث يجد أن من أكبر أسبابها عدمَ تعظيم تفسير كلام الله [1] ﷻ، والجرأة على القول فيه بمجرد الرأي، والهوى، والظن؛ حيث توهم بعض الناس أن بيان معاني القرآن واستنباط أحكامه حق مشروع، و حمى مستباح لكل أحد، بلا شرط ولا قيد.

وقد عظمت هذه الظاهرة في العصر الحديث، وظهر ما يسمى بالقراءات المعاصرة للقرآن الكريم، التي شابهت في غرابتها ومخالفتها لأقوال السلف، وقواعد اللغة، وظاهر السياق ما أثر عن بعض الفرق الضالة القديمة، وساعد على ترويج هذه القراءات المعاصرة أسباب متعددة منها: ثورة

(١) هناك أسباب عديدة لظهور هذه التفسيرات (القراءات) المنحرفة المعاصرة، لكن يمكن أن يقال إن هذا السب هو الأصل والمدخل لبقية الأسباب، وهو سبب مشترك بين أصحاب هذه القراءات على اختلاف مناهجهم وتوجهاتهم.

المعلومات والاتصالات في هذا الزمن، وانتشار ما يسمى بحرية الرأي والتعبير لجميع الناس.

ولذلك رغبت في الكتابة في هذا الموضوع من خلال هذا البحث المختصر الموسوم: (**تعظيم القول في التفسير وأثره في دفع القراءات المنحرفة المعاصرة للقرآن الكريم**)؛ حيث لم أر من كتب في هذا الموضوع كتابة مستقلة حسب علمي.

أهداف الكتابة في هذا الموضوع :

١) بيان حرمة تفسير القرآن الكريم بمجرد الهوى والظن، دون معرفة بأصوله وقواعده.

٢) إظهار تورع السلف – رحمهم الله – عن تفسير القرآن الكريم، وتحرُّجهم من ذلك خوفاً من الخطأ فيه.

٣) الإسهام في ضبط المسار المنهجي الصحيح للكتابة في تفسير القرآن الكريم، والاستنباط منه.

٤) إثبات أن كثيراً من القراءات المنحرفة المعاصرة للقرآن الكريم سببها الخوض في كتاب الله ﷻ بغير علم.

مشكلة البحث

وجود عدد من الباحثين والكتَّاب، ولا سيما غير المتخصصين في علوم الشريعة، الذين يتجرؤون على الكتابة في التفسير مع عدم أهليتهم، وإلمامهم بأدوات وضوابط التفسير؛ لجهلهم أو استخفافهم بها؛ حيث نتج عن ذلك ظهور تفسيرات واستنباطات باطلة، مضطربة المنهج، مليئة بالأخطاء العلمية والمنهجية.

خطة البحث : يشتمل هذا الموضوع على مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وهي كما يلي :

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأهداف الكتابة فيه، وخطة البحث.

التمهيد : وفيه: المراد بالقراءات المعاصرة للقرآن الكريم.

المراد بتعظيم القول في التفسير.

المبحث الأول: تحريم التفسير بمجرد الرأي والهوى.

المبحث الثاني: تورع الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – عن القول في التفسير بغير علم.

المبحث الثالث: أثر عدم تعظيم القول في التفسير في ظهور التفسيرات المنحرفة للقرآن الكريم.

المبحث الرابع: التدبر المشروع، والقول في التفسير بغير علم.

المبحث الخامس: شروط المفسر والمفسرون الجددُ.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج مع التوصيات.

وقد سلكت في هذا البحث المنهج العلمي فعزوت الآيات، وخرجت الأحاديث، وذكرت أحكام الأئمة على ما ليس في الصحيحين منها، ووثقت النصوص.

وفي الختام، أحمد الله تعالى على ما منَّ به عليَّ من إتمام هذا البحث، وأسأله – سبحانه – أن يجعلنا من أهل القرآن الذين يتبعونه حقَّ اتباعه. إنه قريب مجيب.

التمهيد

أولاً: المراد بتعظيم القول في التفسير

تعريف التَّعْظِيْم في اللغة:

التعظيم في اللغة: التبجيل، والتشريف، والتفخيم.

قال ابن فارس: " الْعَيْنُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى كِبَرٍ وَقُوَّةٍ ".(١)

وقال ابن منظور:" التعظيم: التبجيل، والعَظَمَةُ: الكِبْرياءُ، وعَظَماتُ القَوْمِ: سادتُهم وَذَوُو شَرَفِهم "(٢).

وقال الفيروز آبادي: " وعَظَّمَه تَعْظِيماً وأعْظَمَهُ: فَخَّمَهُ، وكَبَّرَهُ"(٣).

تعريف التفسير:

التفسير في اللغة: الإيضاح والبيان، والكشف عن المغطَّى(٤).

وفي الاصطلاح له تعريفات كثيرة، من أوضحها و أوجزها: بيان معاني القرآن الكريم (٥).

والمراد بتعظيم القول في التفسير: رفع منزلة تفسير القرآن الكريم، وتفخيم أمره، والهيبة من الإقدام على بيان معانيه بغير علم.

---

(١) معجم مقاييس الغة، (٢/ ٢٨٥)، مادة "عَظُمَ.

(٢) لسان العرب ٥/ ٣٠٠٤ مادة (عظم) باختصار.

(٣) القاموس المحيط٤/ ١١٥ مادة (عظم).

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٥٥، ولسان العرب ٦/ ٣٤١٢ .

(٥) أصول في التفسير لابن عثيمين ص ٢٨.

ثانياً: المراد بالقراءات المعاصرة للقرآن الكريم

القراءة في اللغة: مصدر قرأ على الصحيح، بمعنى الجمع والضم[١]، والمراد بها: التلاوة، سميت بذلك لأن القارئ يجمع الحروف والكلمات.

هذا ويرى بعض الباحثين أنه لا علاقة للمعنى اللغوي بهذا المصطلح المعاصر، بل هو ترجمة عربية لكلمة:(Lecture) الفرنسية، وانتقل إلى العالم العربي في سياق عملية المثاقفة[٢].

وهم يريدون بالقراءة هنا: التفسير، أو استنباط المعاني.

وسميت هذه القراءات معاصرةً تمهيدا لأن يكون في كل عصر قراءة جديدة للقرآن الكريم. [٣]

والمعاصرة: نسبة إلى العصر، والمراد به: الزمن الحاضر.

والقراءات المعاصرة للقرآن الكريم مصطلح حادث، وقد عرفها بعض الباحثين بقوله:" استخدام النظريات الحديثة في تأويل القرآن الكريم"[٤].

ويمكن أن يقال هي: تفسير القرآن الكريم بالرأي الموافق للمناهج والنظريات الغربية المعاصرة.

ويُطلق عليها أيضاً: القراءات الجديدة، والحداثية، والعصرانية[٥].

---

(١) انظر لسان العرب ٦/ ٣٥٦٣ مادة (قرأ) .

(٢) انظر قضية قراءة النص القرآني ص٦، و نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي ص ١ .

(٣) القراءات المعاصرة للقرآن الكريم ص ٥٦ .

(٤) القراءات المعاصرة للقرآن الكريم ص ٥٦. والمقصود: نظريات تحليل ودراسة النصوص.

(٥) القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي ص ٢ .

المبحث الأول: تحريم التفسير بمجرد الرأي والهوى

التفسير -كما هو معلوم - إما مأثور عن الرسول ﷺ، وعن الصحابة ﷺ والتابعين، وإما معقول مبني على الرأي، فهذا النوع إن كان مبنياً على أدوات الاجتهاد الصحيحة كاللغة العربية، والسياق، ومعرفة سبب النزول ...، وصادراً عمن لديه الأهلية لتفسير القرآن الكريم فهو مقبول ومحمود.

وإن كان مبنياً على مجرد الرأي والهوى، أو مخالفاً لما ثبت عن الرسول ﷺ الصحابة ﷺ التابعين، أو مخالفاً للقواعد والأصول الشرعية أو صادراً عمن لا يملك أدوات الاجتهاد في التفسير لجهل، أو قصور، كما هو حاصل في كثير من التفسيرات المعاصرة، فهو محرم ومذموم وقد دلت على ذلك النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، وأقوال السلف، ومن ذلك:

قوله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الإمام ابن القيم" :وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم،وهذا يعم القول عليه ﷻ بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه"[(١)].

ومن الأدلة على ذلك قوله ﷻ :﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ

(١)إعلام الموقعين عن رب العالمين١/ ٣٨.

﴿وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء: ٣٦] .
والنهي في الآية يشمل كل قول بلا علم[١] .

ومن الأحاديث الواردة في الترهيب من القول في تفسير القرآن بلا علم:
حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " من قال في القرآن بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار "[٢].

وعن جُنْدُب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ "[٣].

قال ابن عطية: "ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله فيتسوَّر عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، أو اقتضته قوانين العلوم كالنحو، والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاةُ نحوه، والفقهاءُ معانيه، ويقول كلُ واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه. وكان جُلَّة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وغيرهما، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم، مع إدراكهم،

---

(١) انظر أضواء البيان ٣/ ١٤٥.

(٢)أخرجه أحمد: ١/ ٢٦٩،،والترمذي ٥/ ١٨٣ ح ٢٩٥٠، وقال: هذا حديث حسن، عن ابن عباس رضي الله عنه، وفي رواية:" من قال في القرآن برأيه .."، وحسنه البغوي في شرح السنة ١/ ٢٥٧، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ١/ ٣٥٩، وروي موقوفاً على ابن عباس، أخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٦ ح ٣٠٠٩٢ والطبري في تفسيره ١/ ٧٢.

(٣) أخرجه أبو داود ٤/ ٦٤ ح ٣٦٥٢، والترمذي ٥/ ١٨٣ ح ٢٩٥٢، وقال: هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ١/ ٣٦٠.

وتقدمهم، وكان جلة من السلف كثير عددهم يفسرونه، وهم أبقوا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم"[١].

وقال النووي:" ويحرم تفسيره بغير علم والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه فمن كان أهلا للتفسير جامعا للأدوات حتى التي يعرف بها معناه، وغلب على ظنه المرادُ فسَّره إن كان مما يدرك بالاجتهاد كالمعاني، والأحكام الجلية والخفية، والعموم والخصوص، والإعراب، وغير ذلك، وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل، وتفسير الألفاظ اللغوية فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله، وأما من كان ليس من أهله لكونه غيرَ جامع لأدواته فحرام عليه التفسير، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله"[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:" أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام... فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به. فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ، والله أعلم"[٣].

وقال الزركشي في البرهان:" لا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل[٤] ... وأما الرأي الذي يسنده برهان فالحكم به في

(١) تفسيره ١/ ٢٢.

(٢) التبيان ١/ ٦٥

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص٩٢- ٩٥.

(٤) أي دليل.

النوازل جائز ..." [١].

"فالواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه، فيكون معظما لهذه الشهادة، خائفا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فَيَخْزَى بذلك يوم القيامة" [٢].

هذا والناظر في حال أصحاب القراءات المعاصرة يجد أنهم أصناف؛ فمنهم الجاهل الذي توهَّم – بحسن نية – أنه يسوغ له تفسير القرآن الكريم وحمل بعض آياته على ما ظهر له من معانٍ وآراء حادثة، ومنهم المرتدُّ الذي يجد تبرير ضلاله في تلك القراءات، ومنهم من ينطلق من عقائد وتصورات باطلة سابقة، ومنهم المبهور المتأثر ببريق شبهات المستشرقين وأذنابهم، ومنهم صاحب الهوى الضال، والفكر المنحرف، والبغض الدفين للكتاب والسنة، الذين يرون أن القرآن الكريم ليس لآياته قداسة، ولا لأحكامه ثبات، ولا لبيان السنة وأقوال السلف قيمة [٣].

ودونك طائفةً من أقاويل بعضهم، وهي مبنية على أصول باطلة، ومناهج منحرفة:

يقول سيد أحمد خان: " وفي ضوء الظروف الجديدة، وتوسع المعرفة الإنسانية لا يمكن الاعتماد في فهم القرآن على التفاسير القديمة وحدها، التي اشتملت على كثير من الخرافات، ولكن ينبغي الاعتماد على نص

(١) البرهان ٢/ ١٧٨.

(٢) أصول في التفسير ص ٢٩.

(٣) انظر أسباب الخطأ في التفسير ٢/ ٧٨٦ وما بعدها، والقراءات المعاصرة للقرآن الكريم ص ٢٩٧.

القرآن وحده، الذي هو بحق كلمة الله، ومن خلال معرفتنا وتجاربنا الذاتية يمكن لنا أن نفسر القرآن تفسيرًا عصريًّا.. "(١).

ويرى أحمد زكي أبو شادي أن" من الحقائق التي يجب التسليم بها أن القرآن الشريف يجب أن يعاد النظر في فهم تعاليمه وتطبيقها من عصر إلى عصر، بل من جيل إلى جيل، وعلى هذا لابد من ظهور تفاسير جديدة متمشية مع روح العصر وتقدم العلم، يؤلّفها المطلعون الواعون من الأحرار المفكرين"(٢).

ويقول طه حسين: "ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر عن قداسته التي تتصورونها، وأن تعتبروه كتاباً عادياً، فتقولوا فيه كلمتكم، ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب، ويبين ما يأخذه عليه، من الوجهات اللفظية والمعنوية والتفكيرية"(٣).

ويقول نصر حامد أبو زيد: " إن النص القرآني وإن كان نصاً مقدساً، إلا أنه لا يخرج عن كونه نصاً، فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النقد الأدبي، كغيره من النصوص الأدبية". (٤)

ويقول أيضاً: " إن دراسة النص من حيث كونه نصا لغويا، أي من حيث بناؤه وتركيبه ودلالته، وعلاقته بالنصوص الأخرى، في ثقافة معينة، دراسة لا انتهاء لها إلا لمجال الدراسات الأدبية في الوعي المعاصر ..."(٥).

---

(١) مفهوم تجديد الدين لبسطامي محمد سعيد ص ١٢٣.

(٢) الاتجاهات العقلانية الحديثة: ١٦٨.

(٣) مجلة الفتح ٦/ ٦٤٦.

(٤) مفهوم النص ص ٢٤.

(٥) مفهوم النص ص ١٨

ويقول محمد أركون: "إن القرآن ليس إلا نصاً من جملة نصوصٍ أخرى، تحتوي على نفس مستوى التعقيد، والمعاني الفوّارة الغزيرة: كالتوراة والإنجيل، والنصوص المؤسِّسَة للبوذية أو الهندوسية، وكلُّ نصٍّ تأسيسي من هذه النصوص الكبرى؛ حَظِيَ بتوسعاتٍ تاريخيةٍ معينة، وقد يحظى بتوسعاتٍ أخرى في المستقبل"(١).

ويقول محمد عابد الجابري: " فهم القرآن مهمة مطروحة في كل وقت ومطلوبة في كل زمان، وقد يكفي التذكير بأن اقتناعنا بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان، يفرض علينا اكتساب فهم متجدد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر"(٢).

ويقول:"لقد كنا نطمح إلى أن نوضح كيف أن فهم القرآن ليس هو مجرد نظر في نص مُلئت هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات، بل هو أيضا فصْل هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي، ليس من أجل الإلقاء بها في سلة المهملات، بل من أجل ربطها بزمان ومكان، كي يتأتى لنا الوصل بيننا نحن في عصرنا، وبين النص نفسه كما هو في أصالته الدائمة"(٣)

فهذا المنهج الذي يدعو إليه هؤلاء وأمثالهم من أعظم الإلحاد في آيات ﷻ، ولذلك نتجت عنهم ومن نحا نحوهم تفسيرات في غاية الغرابة والمناقضة لنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة(٤).

---

(١) الفكر الأصولي لمحمد أركون ص ٣٦.

(٢) فهم القرآن ص ٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٧ .

(٤) وسيأتي ذكر بعض الأمثلة على ذلك، انظر ص ١٩٦ وما بعدها.

يقول ابن تيمية: " استجهال السابقين الأولين، واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله، هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة؛ بل في غاية الضلالة.

كيف يكون هؤلاء المتأخرون أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وأعلام الهدى، ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حِكْمَةُ غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة؟ كيف يكون خيرُ قرون الأمة أنقصَ في العلم والحكمة - لا سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصابئين[1] وأشكالهم وأشباههم: أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟"[2].

(١) قلت: وأفراخ المستشرقين وأتباعهم؛ فإن غالب آراء و أفكار أصحاب التفسيرات (القراءات) المنحرفة المعاصرة مأخوذة عن المستشرقين.

(٢) مجموع الفتاوى ٥/ ١٠، باختصار.

المبحث الثاني: تورع الصحابة والتابعين ﷺ عن القول في التفسير بغير علم

لقد تورَّع الصحابة والتابعون ﷺعن القول في التفسير بغير علم، وهابوا الكلام فيه، خوفاً من الخطأ، وحملِ كلام الله ﷻ على غير مراده، وهذا أمر مستفيض عنهم ومشهور، والآثار عنهم في ذلك كثيرة ومنها:

ما ورد عن أبي بكر الصديقﷺ أنه قال:" أي أرض تُقلّني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم"[(١)].

كما ورد أن عمر بن الخطابﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: قد عرفنا ما الفاكهة، فما الأبُّ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إن هذا لهو التكلف "[(٢)].

وقد تخوَّف هذان الصاحبان الجليلان وترددا في تفسير الكلالة المذكورة في آخر سورة النساء، ولم يجزما بمعناها؛ فعن أبي بكر ﷺ أنه قال: " إني قد رأيت في الكلالة رأيا، فإن كان صوابا فمن الله وحده لا شريك له، وإن يك خطأ فمني والشيطان، والله منه بريء؛ وإن الكلالة ما خلا الولدَ والوالد"[(٣)].

وثبت في صحيح مسلم أن عمر بن الخطابﷺخطب يوم الجمعة في آخر حياته فكان مما قال: ثم إني لا أَدَعُ بعدي شيئا أهم عندي من الكلالة، ما

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧، وابن جرير في تفسيره ١/ ٧٨٤.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٧، وابن جرير في تفسيره ٢٤/ ١٢٠، وصححه ابن كثير في تفسيره ٨/ ٣٢٥، وقال: " فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، به. وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو و كل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ... " وانظر فتح الباري ١٣/ ٢٦٤.

(٣)أخرجه ابن جرير ٦/ ٤٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٦٦ .

راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، فقال: «يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟"[١].

وعن ابن أبي مُلَيْكَة أن ابن عباس سُئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها"[٢].

وكان سعيد بن المسيَّب إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: " لا أقول في القرآن شيئا"[٣].

وكان – رحمه الله – يسأل عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس[٤]، فإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأنْ لم يسمع[٥].

وقال عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطابﷺ: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع" [٦].

وعن إبراهيم النخعي قال: "كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه"[٧].

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ١٩٦ ح(٥٦٧)

(٢) أخرجه ابن جرير ١/ ٨٠، وقال ابن تيمية:" إسناده صحيح" انظر مقدمة في أصول التفسير ص ٤٨.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٣٧٥، وابن جرير في تفسيره ١/ ٧٩.

(٤) ومن المعلوم أيضاً أنهم يتورعون عن الفتوى عموماً، ويتوقفون في ذلك، ويحيل بعضهم السائل إلى بعض، ولكن ورعهم في التفسير أشد وأعظم.

(٥) أخرجه ابن جرير ١/ ٨٠

(٦)أخرجه ابن جرير ١/ ٧٩ .

(٧) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٩، ومراده بالأصحاب: أصحاب ابن مسعودﷺ.

وسئل رجلٌ سعيدَ بن جبير عن آية من كتاب الله ﷻ فقال له سعيد: الله أعلم، فقال له الرجل: قل فيها أصلحك الله برأيك، فقال: أقول في كتاب الله برأيي؟! فردده مرتين أو ثلاثا ولم يجبه بشيء[١].

ومما يدل على أن تركهم القول في التفسير لم يكن عن جهل به بل كان ورعاً وخشية لله ﷻ قول التابعي الجليل عامر الشعبي: "والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله تعالى"[٢].

قال ابن تيمية بعد أن أورد جملة من الأخبار عن الصحابة والتابعين ﷺ في هذا الباب: "فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به.

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران:١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: " من سئل عن علم فكَتَمَه أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار يوم القيامة"[٣][٤].

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ١/ ١٧٤ .

(٢)أخرجه ابن جرير ١/ ٨٠

(٣) أخرجه أحمد ١٣/ ١٧ ح ٧٥٧١ طبعة مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرناؤوط، وأبو داود ٤/ ٦٧ ح (٣٦٥٨) و ابن ماجه ١/ ٩٧ ح ٢٦٤ عن أبي هريرة ﷺ، وضعفه البوصيري في زوائد ابن ماجه ص ٦٩، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٥٢.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٠، وانظر تفسير ابن جرير ١/ ٨٣.

ولقد كان لمنهج السلف في التشدد في الكلام على التفسير وعدم الخوض فيما لم يبلغه علمهم أثر كبير في حماية تفسير القرآن الكريم من الخطأ التحريف، وتعظيم قدره في النفوس، وكفِّ الناس عن الجرأة عليه بغير علم.(١)

وكانوا – رحمهم الله – أشد الناس حرصاً على معرفة معاني القرآن وأسباب نزوله والسماع عمن لديه علم بتأويله، حتى إن الواحد منهم يقطع المسافات الطويلة، وينفق ماله، ويجهد نفسه في سبيل تحصيل تفسير آية من كتاب الله ﷻ.

قال ابن مسعود ﵁: " والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه" (٢).

وحينما اختلف أهل الكوفة في إحدى الآيات، رحل سعيد بن جبير إلى ابن عباس﵁ في مكة يسأله عنها، قال – رحمه الله-:" آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلتُ فيها إلى ابن عباس﵁ فسألته عنها، فقال: " نزلت هذه الآية: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء:٩٣] هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء "(٣).

فينبغي للمسلم أن يقتدي بالسلف الكرام في هذا الباب، وألا يستعجل في تفسير آية من كتاب الله ﷿ بغير علم صحيح؛ فإن السلامة لا يعدلها شيء، ومن قال لا أدري فقد أفتى.

(١) انظر نقد الصحابة والتابعين للتفسير ص ٧٢.
(٢) أخرجه البخاري ٦/ ٤٦ ح(٤٥٩٠)، ومسلم ٤/ ٣٢١٧ح(٣٢٣).
(٣)أخرجه البخاري ٦/ ١٨٧ ح(٥٠٠٢)، ومسلم ٤/ ١٩١٣ ح(١١٥).

المبحث الثالث: أثر عدم تعظيم القول في التفسير في ظهور التفسيرات المنحرفة للقرآن الكريم

إن الجرأة على تفسير القرآن العزيز وعدم تقديس آياته، وتعظيم من تكلم به، والتساهل في تفسيره بغير علم، وإعمال الرأي في الاستنباط منه من غير التزام بالقواعد المرعية، ولا نظر في الأقوال المروية عن سلف الأمة في القرون المرضية= من أكبر أسباب ظهور التفسيرات الشاذة والمنحرفة للقرآن الكريم قديماً وحديثاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" والمقصود أن مثل هؤلاء - يريد بعض المؤلفين المنحرفين- اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، إما دليلا على قولهم أو جوابا على المعارض لهم"[(١)].

وقال – رحمه الله -: " ولا ريب أن القوم أخذوا العبارات الإسلامية القرآنية والسنِّية، فجعلوا يضعون لها معاني توافق معتقدهم ثم يخاطبون بها، ويجعلون مراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من جنس ما أرادوا، فحصل بهذا من التلبيس على كثير من أهل الملة ومن تحريف الكلم عن مواضعه ومن الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته ما الله به عليم، ولهذا قد

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٧٥.

يوافقون المسلمين في الظاهر، ولكنهم في الباطن زنادقة منافقون... "[1].

وقال –رحمه الله – مبيناً منهج أهل الضلال والبدع في بيان معاني نصوص الكتاب والسنة:" يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعا لهم فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ويقولون: نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه..."[2].

وهكذا تفسيرات بعض المعاصرين الذين يزعمون أنهم يقرؤون القرآن قراءة جديدة موافقة لروح العصر، وظروف الزمان والمكان، والوقع أنها نتيجة للهزيمة النفسية، والإعجاب المفرط بالفكر الغربي، وضعف أو عدم الإيمان بسمو الشريعة الإسلامية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان [3].

" والواقع أننا لا نضيق بأي تفسير عصري يمكن أن يخدم القرآن والدين، يراعى فيه حسن العرض والتحليل والأسلوب الجذاب بشرط ألا يُصرف إلى معان تجافي النص، وتفتقر إلى الدليل، وتفتح أبواب الفتنة، وتجعله غرضا لكل ذي هوى أو مرض، وبشرط أن يكون المفسر مؤهلا لذلك برصيد كاف من علوم القرآن، متحرجا عن أن يقول فيه بالرأي، محافظا على دلالة النص"[4].

---

(١) بغية المرتاد ص ٢٣٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/ ٣٥٥

(٣) انظر أسباب الخطأ في التفسير ١/ ١٩، وانظر نفس المرجع ٢/ ٨٩٨.

(٤) اتجاهات التفسير في العصر الحديث ص ٢٤١.

ولذلك نجد أن سلف الأمة ومن سلك سبيلهم في تعظيم القول في التفسير وعدم الجرأة عليه، والالتزام بقواعده وأصوله أقل خطأً من غيرهم، ثم إن خطأهم في التفسير – وهم غير معصومين – ليس من جنس خطأ غيرهم من أهل الأهواء والبدع والأفكار المنحرفة، كلا؛ فلم يثبت عنهم قول شنيع ينقض محكمات القرآن والسنة، ويضاد مقاصد الشريعة، ويَحُطُّ من قدر الأنبياء، ويهدم أصول العقيدة، ويضرب النصوص بعضها ببعض كما هو الحاصل عند أهل التفسيرات المنحرفة من المتقدمين والمعاصرين، ودونك نماذج من تفسيراتهم أذكرها دون مناقشة أو تعليق؛ لأن معرفة بطلانها معروف بالاضطرار عند كل من له صلة بالعلم الشرعي، أو فهم لألفاظ اللغة العربية.

فهذا عبد المجيد الشرفي يفسر القطع في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة:٣٨] بأنه: توفير سبيل العمل، وأن إقامة الحد مناف للقيم الحديثة!.[(١)]

وأما محمد شحرور فيرى أن المراد بالجيوب في قوله ﷻ: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور:٣١] :أماكن الثنيات والفتحات من الجسم، وهذه التي يجب سترها فقط .

لذلك أباح للمرأة من الناحية الدينية أن تصلي في المسجد صلاة الجماعة حتى ولو كانت بالسروال القصير الذي يغطي السوأتين، ولكن من باب

(١) انظر القراءات المعاصرة للقرآن ص ١١٠.

العادات الاجتماعية والأدب لا يجوز ذلك، بل تصلي وهي ترتدي ملابسها، وذلك من باب العيب وليس من الدين! (١).

ومن ذلك تأويل محمد أمين شيخو قوله ﷻ: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج:٢٣]، بأن المراد بالحرير: تحرر النفس عن الجسد! (٢).

ومما يؤسف له أن هذه القراءات المعاصرة لم تَعد مقتصرة على الفلاسفة المنحرفين في الفكر والمعتقد والمنهج، (٣) بل وقع في هذا المزلق بعض الأخيار المعظمين لكتاب الله الكريم من خلال اجتهادات خاطئة مخالفة لما ثبت عن السلف، معارضة لمقتضى السياق، وقواعد اللغة، يدّعون أنها دلائل واضحة على أنواع من إعجاز القرآن الكريم، وربما شطَّ بعضهم فزعم أن المفسرين أخطئوا في تفسير بعض الآيات؛ لأن معناها الصحيح من مكتشفات العلم الحديث!

ومن الأمثلة على ذلك تفسير بعضهم لقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١] بأن النفس الواحدة: البروتون، وزوجها: الإلكترون!(٤).

وتفسير آخرين للطير الأبابيل في قوله ﷻ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ [الفيل:٣] بأنها الحشرات التي تنقل الأمراض(٥).

---

(١) الكتاب والقرآن ص ٦٠٤ .

(٢) انظر القراءات المعاصرة ص ٢٦٣.

(٣) انظر ص ٦-٧

(٤) القرآن والعلم الحديث ص ١٣٦ .

(٥) تفسير جزء عمَّ لمحمد عبده، وتفسير المراغي ٣٠/ ٢٤٣

ونفي آخر أن يكون الوَهْن المذكور في قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١]، يُقصد به وهن المادة المكونة لبيت العنكبوت (الشبكة العنكبوتية)،بل هو وهن الصِّلات الاجتماعية والتفكك الأسري لبيت العنكبوت، حيث سيطرة الأنثى على الذكر، معللاً ذلك بأن العلم قد أثبت بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب بثلاث مرات، وأقوى من خيط الحرير وأكثر مرونة، وهذا الخيط يحمل أوزاناً أكبر منه بعشرات المرات، فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجاته وافياً بالغرض وزيادة وهو بالنسبة إليه قلعة آمنة، وهذا من نتائج تصنيف العلم الحديث للمواد؛ .... وأن الضعف والوهن هنا له دلالة اجتماعية وليست مادية؛ حيث إن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن وصفه بالأمان والسكينة والطمأنينة؛ فالأنثى تقتل ذكرها بعد التلقيح وتأكله، والأبناء يأكلون بعضهم بعد الخروج من البيض، ثم إن الآية قد ختمت بالقول (لو كانوا يعلمون) أي أنهم لا يعلمون هذا، وسيعلمونه مستقبلاً بعد تقدم العلم التطبيقي والتجريبي! [1].

(١) انظر مجلة آيات العدد السابع ١٤٢٥ هـ ص ٢٦.

المبحث الرابع: التدبر المشروع، والقول في التفسير بغير علم

حثَّ الله ﷻ على تدبر[1] كتابه العزيز، وذمَّ المعرضين عن التفكّر في آياته، فقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، وقال ﷻ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]، وقال ﷻ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والخطاب في هذه الآيات الكريمة عام لجميع الناس مسلمهم وكافرهم؛ فكلهم مأمورون بتدبر القرآن حسب استطاعتهم، منهيون عن الإعراض عن التفكر فيه، والاهتداء بهديه، والعمل به وعدم مخالفته.

قال القرطبي: "حثَّ على تأمل مواعظ القرآن، وبَيَّنَ أنه لا عذرَ في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبال ــ مع تركيب العقل فيها ــ لانقادت لمواعظه، ولرأيتَها ـ على صلابتها ورزانتها ــ خاشعةً متصدعةً،

(١) التدبر في اللغة: النظر في عاقبة الشيء، انظر معاني القرآن للزجاج ٢/٨٢، وقال الجرجاني: " عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب " التعريفات ص ١٧، وتدبر القرآن: "التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء" تفسير أبي حيان ٩/ ٣٣٨.

أي: متشققة من خشية الله"(١).

وقال الشنقيطي: " كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في مثل قول الله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[السجدة:٢٢]، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر"(٢).

وقد يقول قائل من أصحاب التفسيرات المنحرفة المعاصرة إن الله ﷻ أمر بتدبر كتابه كما سبق، وأنا أقوم بهذه العبادة، ومن حقي أن أتأمل وأستنبط المعاني التي يؤدي إليها فكري واجتهادي، فلماذا تحجرون عليّ؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إن كان التدبر فيما دلت عليه الآيات من المعاني الواضحة التي يتوصل إليها من يعرف اللسان العربي، وتشهد لها نصوص الشريعة ومقاصدها وقواعدها، ولا تخالف ما ثبت عن السلف فيها(٣) فهو أمر مشروع، بل واجب.

وإن كان التدبر فيما خفي معناه من الآيات، أو نتج عنه استنباط معان باطلة لا تدل عليها اللغة، ولا يشهد لها ظاهر السياق، وتناقض ما ثبت عن

---

(١)الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ٤٤

(٢) أضواء البيان ٧/ ٣٥٨.

(٣) ومن المعلوم أن التدبر أمر نسبي يتفاوت بحسب قدر المُتَدَبِّر في العلم والفهم.

الصحابة والتابعين فهو غير مشروع، بل هو من القول على الله ﷻ بغير علم، وذلك من أعظم الذنوب كما تقدم؛ فإن للتدبر شروطاً وقواعد وضوابط يجب الالتزام بها، وعدم الخروج عنها، وليس هذا مقام تفصيلها، وفيما مضى إشارات إليها، وفي المبحث التالي تتمة لها[1].

قال ابن جرير:" في حث الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن، من المواعظ والبينات، بقوله جل ذكره، لنبيه ﷺ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّمَر:٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده، وحثهم فيها، على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا معرفة من القيل والبيان إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره. وهو بمعناه جاهل ... "[2].

وقال الشاطبي:" فإن ظواهر الأدلة إذا اعتبرت من غير اعتماد على الأولين فيها مؤدية إلى التعارض والاختلاف وهو مشاهد معنى، ولأن تعارض الظواهر كثير مع القطع بأن الشريعة لا اختلاف فيها.

---

(١) وللاستزادة انظر شروط التدبر للدكتور خالد السبت، بحث مقدم لملتقى التدبر الثاني في الرياض.

(٢) تفسير ابن جرير ١/ ٧٦

ولذلك لا تجد فرقة من الفرق الضالة، ولا أحدا من المختلفين في الأحكام لا الفروعية ولا الأصولية يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة، وقد مر من ذلك أمثلة، بل قد شاهدنا ورأينا من الفساق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة ينسبها إلى الشريعة المنزهة وفي كتب التواريخ والأخبار من ذلك أطراف ما أشنعها في الافتئات على الشريعة "(١).

وقال الزركشي:"واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة،ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب،أو في قلبه كبر أو هوى،أو حب الدنيا، أو يكون غيرَ متحقق الإيمان،أو ضعيف التحقيق، أو معتمدا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعا إلى معقوله،وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض. إذا كان العبد مصغيا إلى كلام ربه ملقيَ السمعِ وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظرا إلى قدرته، تاركا للمعهود من علمه ومعقوله متبرئا، من حوله وقوته، معظما للمتكلم، مفتقرا إلى التفهم بحال مستقيم وقلب سليم وقوة علم وتمكن سمع لفهم الخطاب، وشهادة غيب الجواب بدعاء وتضرع وابتئاس وتمسكن، وانتظار للفتح عليه من عند الفتاح العليم. وليستعن على ذلك بأن تكون تلاوته على معاني الكلام، وشهادة وصف المتكلم من الوعد بالتشويق والوعيد بالتخويف والإنذار بالتشديد، فهذا القارئ أحسن الناس صوتا بالقرآن وفي مثل هذا قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

(١) الموافقات٣/ ٧٦، وانظر شرح مقدمة التفسير لابن تيميه لابن عثيمين ص ١٤٠.

هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ [البقرة:١٢١].

وهذا هو الراسخ في العلم جعلنا الله من هذا الصنف والله يقول الحق وهو يهدي السبيل"[١].

وبعد هذا يقال: أين أصحاب التفسيرات المنحرفة المعاصرة من هذه الصفات العظيمة التي ذكرها الإمام الزركشي- رحمه الله-؟ لقد اجترأ على تفسير كتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ أقوام لم يعرفوا بعلم و لا ديانة ولا خشية لله عَزَّ وَجَلَّ، فالله المستعان!

ثم إن هناك فرقاً بين أن يتدبَّر الإنسان ويتفكر في بعض الآيات، ويراجع كلام المفسرين حولها، ويسأل أهل العلم عنها، وبين من يسارع إلى إشاعة آرائه وتأملاته، ويجادل عنها، ويخطِّي من يخالفها ولو كان من السلف أو كبار المفسرين.

(١) البرهان ٢/ ١٨١

المبحث الخامس: شروط المفسر والمفسرون الجدد

وضع العلماء لمن أراد أن يفسر كتاب الله ﷻ شروطا يجب أن تتوفر فيه قبل أن يقدم على هذه المهمة العظيمة، وقد تقدم في المبحث الأول التأكيد على حرمة الإقدام على التفسير من غير معرفة بأصوله وقواعده وتحصيل لأدواته.

قال النووي:" ويحرم تفسيره بغير علم والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه فمن كان أهلا للتفسير جامعا للأدوات التي يعرف بها معناه، وغلب على ظنه المرادُ فسَّره إن كان مما يدرك بالاجتهاد كالمعاني، والأحكام الجلية والخفية، والعموم والخصوص، والإعراب، وغير ذلك، وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل، وتفسير الألفاظ اللغوية فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله، وأما من كان ليس من أهله لكونه غيرَ جامع لأدواته فحرام عليه التفسير، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله"[1].

وقبل بيان هذه الشروط أنبه على أنه لا يدخل في ذلك من ينقل تفسير غيره من أهل العلم، كما لا يدخل أيضاً من يلتمس بعض المعاني والهدايات الواضحة فيعتبر بها ويتعظ ويتفكر، وإنما المراد هنا من يجتهد في تفسير القرآن اجتهاداً خاصاً ثم ينشره بين الناس، وقد قسم بعض المعاصرين هذه

(١) التبيان ١/ ٦٥

الشروط ثلاثة أقسام، وسأذكرها إجمالاً[(١)]:

أولاً: الشروط العلمية

ويعبر عنها بعض أهل العلم بـ (العلوم التي يحتاجها المفسر) أو (الآلات التي يحتاج إليها المُفَسِّر)، وقد اُختلف عددها، ودرجة إحاطة المفسِّر بها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

١) علوم القرآن، ومنها علم القراءات، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وأسباب النزول، وغير ذلك.
٢) علم الحديث، رواية ودراية.
٣) علم العقيدة.
٤) علوم اللغة العربية.
٥) علم الفقه.
٦) علم أصول الفقه.

ثانياً: الشروط العقلية

والمراد بذلك أن يكون عنده قدرة ذهنيه يستعين بها على الفهم الدقيق، واستنباط المعاني، والترجيح بين الأقوال، والاستدلال الصحيح.

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع ينظر:مقدمتان في علوم القرآن ص:١٧٤، مقدمة جامع التفاسير ص:٩٣،الإكسير في علم التفسير ص:٥٤، الإتقان في علوم القرآن ٦/ ٢٢٧٤،مباحث في علوم القرآن، د.مناع القطان ص:٣٢٩ دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي ص:١٦٦ تفسير القرآن الكريم، د. علي العبيد ص:١٤٣، المفسر شروطه وآدابه، آدابه، مصادره، لأحمد قشيري سهيل، علم أصول التفسير محاولة في البناء ص ١٩٥.

قال أبو عمرو المازني مبيناً صفات المفسر:" ... أن يكون جيد القريحة، ذكي الفهم، قوي الفكرة؛ فإن البليد قد يتقاعد عن فهم ما يبين له،فكيف يستنبط ما لم يبين له"[١].

ثالثًا: الشروط الدينية والأخلاقية

وخلاصتها ما يلي:

١- إخلاص النية لله ﷻ.

٢- صحة الاعتقاد ولزوم السنة.

٣- التجرد عن الهوى.

٤- تقوى الله ﷻ.

وهناك شروط فرعية تتعلق ببعض أنواع التفسير، كالتفسير الموضوعي، والعلمي وغيرها[٢].

هذا والناظر في حال عامة أصحاب القراءات الجديدة للقرآن الكريم يجد أن معظم هذه الشروط لا تتوفر فيهم، فهم متطفلون على هذا العلم الشريف، مجترئون عليه، بل إن بعضهم يُخَطِّئ الصحابة والتابعين وكبار المفسرين، ويجزم أن مراد الله ﷻ في بعض الآيات هو ما توصل إليه هو، أو غيره من المعاصرين!، ولو أن هؤلاء عرضوا ما ظهر لهم من استنباطات على أهل العلم قبل أن يذيعوها ويجزموا بها الراسخين لسلموا، ولكن للأسف كثير منهم يرون أن عندهم أهلية كافية للنظر والاستنباط.

(١) مقدمة المباني ص ١٧٤، ضمن كتاب: (مقدمتان في علوم القرآن)

(٢) انظر هذه الشروط الفرعية في: المفسر شروطه وآدابه، آدابه، مصادره، لأحمد قشيري سهيل ص١٨٩.

"وليس كل مفكر يستطيع تفسير القرآن، فما لم يكن عظيم المعرفة بنصوص القرآن والسنة، عالما باللغة العربية: نحوا، وبلاغة، وفقها، عالما بطريقة استنباط المعاني والأحكام، فإنه على خطر شديد إذا أقدم على تفسيره؛ لهذا يجب أن يتحاشاه من ليس من أهله، كما يتحاشى المهندس أن يكون طبيباً، والطبيب أن يكون مهندسا، حتى لا يقع كل منهما في خطأ لا يمكن تلافيه...."[1].

ولما رأى بعض أصحاب هذه القراءات أن هذه الشروط تحول بينهم وبين تحريف كلام الله ﷻ أنكروها، ورأوا أن كل مسلم له الحق في تفسير القرآن الكريم.

يقول محمد أركون:" الشخص الوحيد الذي يحق له أن يقوم بعملية التفسير والتأويل هو المكلف المؤمن"[2].

بل زعم بعضهم أن غير المسلمين لهم الحق في النظر في الإسلام ودراسته، وأن هذا الأمر لا يخص أشخاصاً أو جهات معينة![3].

(١) اتجاهات التفسير في العصر الحديث ص ٢٦٠.

(٢) الفكر الإسلامي، قراءة علمية، لمحمد أركون ص ٢٦٩.

(٣) انظر التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم ص ٣٦٣

الخاتمة

وفي الختام، وبعد أن يسَّر الله تعالى كتابة هذا البحث الموجز، هذه بعض النتائج التي ظهرت لي من خلاله، وهي كما يلي:

١) علم التفسير علم جليل القدر، عظيم الشأن؛ لتعلقه بكتاب الله تعالى، ولذلك يجب على كل مسلم أن يحذر من القول فيه بغير علم، أو يتجرأ على إحداث قول مناقض لما ثبت عن الصحابة والتابعين وأئمة المفسرين فيه.

٢) أن منهج الصحابة والتابعين لهم بإحسان الورع والسكوت عمّا لم يبلغْهُ علمهم من معاني القرآن الكريم، ولذلك قلَّ عندهم الخطأ في ذلك.

٣) تدبُّر القرآن الكريم، واستنباط أحكامه وهداياته، وتنزيلُ آياته على الواقع أمر مشروع ومندوب إليه، ولكن ذلك محكوم بضوابط وأصول وقواعد تجب مراعاتها.

وبناءً على ما تقدم، أوصي بالأمور التالية:

١) الحذر من تفسير القرآن الكريم بتفسيرات جديدة مخالفة لما ثبت عن الصحابة والتابعين وأئمة المفسرين.

٢) تربية الناس ولا سيما طلاب العلم على تعظيم التفسير، وعدم الخوض فيه بلا علم.

٣) الاهتمام بعلم أصول التفسير وقواعده، وتعليمها في المدارس والجامعات والمساجد.

٤) تعليم التدبر المشروع، وتدريب الطلاب على وسائله الصحيحة.

٥) الرد العلمي المؤصل على أصحاب الآراء الباطلة في التفسير ولا سيما إذا اشتهرت.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

- اتجاهات التفسير في العصر الحديث، لمصطفى محمد الحديدي الطير، مجمع البحوث الإسلامية، الشركة المصرية للطباعة.
- الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي،تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة.
- أسباب الخطأ في التفسير، لطاهر يعقوب، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
- أصول في التفسير، للعثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- إعلام الموقعين، لابن القيم، دار الجيل، بيروت.
- بحوث في أصول التفسير ومناهجه، لفهد الرومي، الطبعة الثامنة، ١٤٢٨هـ.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ .
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ .
- بغية المرتاد، لابن تيمية، تحقيق موسى الدويش، دار العلوم والحكم، المدينة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- التبيان، للنووي، تحقيق محمد عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ.

- التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ .
- تفسير ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.
- تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق:عبد الله الأنصاري وزملائه،وزارة الأوقاف، قطر، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ.
- تفسير أبي حيان، البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.
- تفسير الشنقيطي، أضواء البيان،دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية.
- تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه، لعلي العبيد، مكتبة التوبة،الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي،تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢٧هـ .
- التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، لمنى الشافعي، دار اليسر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

- الجامع الصحيح، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، توزيع دار الباز، مكة.
- جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ.
- الدلالات اللفظية وأثرها في استباط الأحكام من القرآن الكريم،لعلي الطويل، دار البشائر، بيروت الأولى، ١٤٢٧هـ.
- زوائد ابن ماجه، للبوصيري، مكتبة دار الباز، مكة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الفيصلية، مكة .
- سنن أبي داود، للحافظ أبي داود السجستاني، إعداد وتعليق : عزت الدعاس، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ .
- صحيح البخاري (مع فتح الباري)، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ .
- صحيح الترغيب،للألباني، المكتب الأسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة الإسلامية، استانبول .
- ضعيف سنن أبي داود، للألباني، المكتب الإسلامي بيروت.
- ضعيف سنن الترمذي، للألباني، المكتب الإسلامي بيروت.
- علوم القرآن بين البرهان والإتقان، لحازم حيدر، دار الزمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- فضائل القرآن لأبي عبيد، تحقيق وهبي غاوجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٥هـ.
- القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير، لمحمد محمود كالو، دار اليمان، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ .
- قضية قراءة النص القرآني، لعبد الرزاق هرماس.
- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق : عبد الله علي الكبير وزملائه، دار المعارف.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ .
- مسند الإمام أحمد، دار الفكر .
- المصنف، لابن أبي شيبة، اعتنى به محمد عبد السلام شاهين،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- معاني القرآن، للزجاج، تحقيق عبد الجليل شلبي،دار الحديث،القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.
- معجم مقاييس اللغة،لابن فارس، دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ه.
- المفسر شروطه وآدابه، آدابه، مصادره، لأحمد قشيري سهيل، مكتبة

الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

- مفهوم تجديد الدين، لبسطامي محمد سعيد، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

- مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد،المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة السابعة ٢٠٠٨ .

- مقدمتان في علوم القرآن (مقدمة كتاب المباني، ومقدمة تفسير ابن عطية) اعتنى بها أرثر جفري، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٤ م.

- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، دار الرسالة، مكة، ١٤١٥هـ.

- الموافقات، للشاطبي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

- نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي، لمحمد بن زين العابدين رستم، بحث مقدم إلى مؤتمر" القراءات المعاصرة للقرآن الكريم"جامعة شعيب الدكالي كلية الآداب شعبة الدراسات الإسلامية الجديدة المغرب.

- نقد الصحابة والتابعين للتفسير، لعبد السلام الجار الله، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.